المساواة

تمهيد

اما رأيت الثري تنهب الارض سيارته والابهة والرواء حواليه كأن السعد أقام منها هالة بينه وبين من يقل عنه ترفاً ولمعاناً ، وهناك في الزاوية يدب المعدم ويمتني متأوهاً كأنه في تمرغه حشرة خبيثة تأنف الارض مسها وتمتعض انعكاس ظلها ؟

أو ما رأيت الحسناء ترتدي الثياب الفاخرة على احدث هندام وفي عنقها ومعصميها جواهر توازي ثروة وتصور نعيماً ، اما رأيتها تمر رشيقة معطرة امام امرأة رثة الثوب تحمل طفلا هو آية ذلها في الغد كما هي علة ذله اليوم ، والذباب يأكل من مآقيها ووجنتيها ما لا تستطيع إزالته لانها فقيرة حتى من الماء الطهور ؟

قد تنفي مظاهر البؤس مالاً وعقاراً وقد لا تكون دلائل العز غير نفخة واستهتار غرور . على ان المشهدين يمثلان من سلم الكفاف أعلى الدرجات وأدنى الدركات ، وبينهما تتلاصق الرتب على اختلافها بما يلازم ذويها من عوز متنوع واحتياج لجوج

ازاء هذين النقيضين حن الشعوريون الى اخوة الروح تبدو بين طبقات المجتمع ، وعمد المفكرون الى المقابلة والاستنتاج ، وقام المحرومون يصرون صريراً ، وانبرى النظريون يعينون حقوق البشر على البشر ، ومثل الشاعر الحماسي دوره فارسل هايني زفرات كأنها المتفجرات هولاً وخطراً وتحريضاً حيث هتف « ملعون هو الاله ، اله السماء . . . ملعون هو الملك ملك الاغنياء . . . وملعون هو الوطن المجازف بنيه »

وليس جميع هؤلاء ليرضون بان تجيء شكايتهم تعارض نفس الطبيعة ، بل هم يتسلحون بالحجة والبرهان مشيرين الى الشمس تسكب النور والحرارة على الاشرار والصالحين . ويستشهدون بالهواء يؤدي الحياة الى الحيوان والانسان

ولا يكون على الجماد ضنيناً . ويدلون الى الارض تعتش في حضنها المعادن وتكلأ المرعى لكل ذي نسمة يرتعي . ويومئون الى منبسطات البحار تعم مختلف السمك والوحش المائي من كل فصيلة وحجم ولون . ويذكرون اللحد يحوي الموتى قاطبة على نمط واحد ليدفع بهم الى الاضمحلال فريسة والى التحول مادة . فاذا اجزلت الطبيعة الهبات ودعت جميع بنيها الى امتصاص ثديها المدرار فانّى للكبرياء ان تخلق التفاضل وتجعل بين البشر فروقاً وسدوداً فتشل عضواً لتقوي عضواً وتحرم قوماً لتمتع قوماً ؟

هم يتساءلون عما حتّل هذا الجور المرهق ويصيحون بقوة انفعالاتهم واحتياجاتهم المثالية : المساواة ! إنما نطلب المساواة !

ان لم يتمرّد العبيد بهذه الكلمة وبمعناها العصري فانما التوق المبهم اليها هو الذي اضطرهم الى تكسير القيود والخروج على سادتهم مرة بعد اخرى في تعاقب العصور القديمة حتى باتت أثينا وروما من اولئك الثورات في خطر عظيم

هي التي دمدمت في نفوس عشرين الفاً من العبيد ان ينزعوا الى الاسبارطيين يوم احتلوا جانباً من بلاد الاغريق في الحرب البلوبونزية طمعاً في الحصول ان لم يكن على تحرير تام فعلى تحسين مبين

هي التي نعشت العصيان في قلوب عبيد متاجم اللوريوم وقوّت سواعدهم على الفتك بحرّاسهم والمسيطرين عليهم فاستولوا على حصن سونيوم وانزلوا في اتيكا الجميلة خراباً ودماراً

بالهامها انقلب سبارطقس التراقي زعيماً لاخوانه العبيد في روما فحارب على رأسهم جيوش الدولة العظيمة النظامية يقودها الكبراء والنبلاء ، ولم يكف عن النضال الا بسقوطه صريعاً بطعنة ارسلتها يد كراسس احد الثلاثة اعضاء الحكومة العليا . ثم ان لم تكن هي فاي قوة يا ترى أقامت دولة المماليك في مصر ؟

لاجلها شبّت الثورة الفرنساوية وانبرت تُعلن للانسان حقوقه المدنية المرتكزة على الحقوق الطبيعية فأثبتت في مطلع بيانها بنداً اول شاركها اليوم فيه

العالم المتمدن ، وهوان « الناس يولدون ويظلون متساوين احراراً ازاء القانون ». فحذفت بهذا السند نظام الاقطاع القائم على تفاوت الحقوق والواجبات

وباسمها اعترّت المرأة فنهضت من تحت قدم السيد الساحقة ووقفت عالية الجبين ازاء مسالك الحياة وأعمالها . وفي سبيلها وضع ماركس كتابه الشهير صارخاً « اتحدوا يا عمال العالم ! » فتبارى الزعماء في تكوين الاحزاب وسن القوانين ونشر اللوائح واقامة المؤتمرات الثلاثة لاتحاد العمال الدولي . وهي هي التي هزّت روسيا من أقصاها الى اقصاها واضرمت تحت سمائها شعلة الثورة المدلهمة

اذكرها يتزاحم حولك جمهور دعاتها وكهنتها : ماركس ، لاسال ، انجلس ، رودبرتوس ، باكونين ، كروبتكين ، وعشرات غيرهم يدحضون مذهب داروين وهوبس القائل بتنازع البقاء بمذهب التضامن والتعاون البادي بين جميع الموجودات

بل اذكرها يفضح حولك هتاف الشعوب وصراخ الطبقات الاجتماعية وانين المحتاجين والمتوجعين . هؤلاء لا يفقهون معناها تماماً ويزعمون انها مشاركة الغني بغناه ، والوجيه بوجاهته ، والمتنعم بنعمته . وحسبهم انها تخفي عنهم شبح غد غدار لا يضمن لهم ولذويهم الغذاء . او يرون فيها انفراجاً معتدلاً لضيقتهم ، كذلك العامل الانجليزي القائل « تريدان تعرف ما هي المساواة ؟ عشر شلنات في النهار يا سيدي »

تكاد تكون المشاكل الدولية الاعيب اذا ما قورنت بالمشاكل الاقتصادية التي يسمونها اجتماعية . ومشكلة « المساواة » هي الآن امّ المشاكل ، واسمها يطنّ من كل صوب

وانها مع الحرية والاخاء لتهزّ نفسي ، وقد هزّتها منذ ان كان لي نفس تتحرك . غير اني وصلت الى نقطة اودّ عندها تحليل كل شعور وكل تأثير

ما هي المساواة ، واين هي ، وهل هي ممكنة ؟ هذا ما ارغب في استجلائه في الفصول الآتية دون اندفاع ولا تحيز ، بل باخلاص من شكّت من جميع قواها النفسية والادراكية محكمة محققين ، يستعرضون خلاصة ما تقوله الطبيعة والعلم والتاريخ ليثبتوا حكماً يرونه صادقاً عادلاً

(يتبع)